

الوافي في الوفيات

ورأى من العز والرياسة والوجاهة والسيادة ما لا رآه جده صاحب بهاء الدين حكى لي القاضي شهاب الدين محمود C وغير واحد : أن صاحب فخر الدين ابن الخليلي لما لبس تشریف الوزارة توجه من القلعة بالخلعة إلى عند صاحب تاج الدين وجلس بين يديه وقبل يده فأراد أن يجبره ويعظم قدره فالتفت إلى بعض غلمانہ أو عبيده وطلب منه توقيعاً بمرتب يختص بذلك الشخص فأخذه وقال مولانا يعلم على هذا التوقيع فأخذه وقبله وكتب عليه قدامه وكان الشيخ فتح الدين ابن سيد الناس C إذا حكى ذلك يقول : وهذه الحركة من صاحب تاج الدين بمنزلة الإجازة والإمضاء لوزارة ابن الخليلي ومن أحسن حركة اعتمدها ما حكاہ لي القاضي شهاب الدين ابن فضل الـ قال : اجتزت بترتبه فرأيت في داخلها مكتباً للأيتام وهم يكتبون القرآن في ألواحهم فإذا أرادوا مسحها غسلوا الألواح وسكبوا ذلك على قبره فسألت عن ذلك فقليل لي هكذا شرط في هذا الوقف وهذا مقصد حسن وعقيدة صحيحة وكان صاحب بهاء الدين يؤثره على أولاده لصلبه ويعظمه أخبرني القاضي شهاب الدين ابن فضل الـ قال : أخبرني قاضي القضاة جلال الدين القزويني C قال وقفت على إقرار صاحب بخاء الدين بأنه في ذمته للصاحب تاج الدين ولأخيه مبلغ ستين ألف دينار مصرية ومن وجاهته وعظمته في النفوس أنه لما نكب على يد الشجاعي جرده من ثيابه وضربه مقرعة واحدة فوق قميصه ولم يدعه الناس يصل إلى أكثر من ذلك مع جبروت الشجاعي وعتوه وتمكنه من السلطان وكان له شعر حسن من ذلك ما كتبه إلى السراج الوراق يعزيه عن حمار سقط في بئر فنفق من أبيات : .

يفديك جحشك إذ مضى متردياً ... وبتالد يفدي الأديب وطارف .

عدم الشعير فلم يجده ولا رأى ... تبناً وراح من الظما كالتالف .

ورأى البويرة غير جاف ماؤها ... فرمى حشاشة نفسه لمخاوف .

فهو الشهيد لكم بوافر فضلكم ... هذي المكارم لا حمامة خاطف .

قوم يموت حمارهم عطشاً لقد ... ازروا بحاتم فيالزمان السالف .

قوله لا حمامة خاطف أشار إلى أبيات ابن عنين التي مدح الإمام فخر الدين الرازي وقد جاءت حمامة فدخلت حجره هرباً من جراح كان خلفها وسيأتي ذلك في ترجمة فخر الدين الرازي وأجابه الوراق بقصيدة على وزنہا في غاية الحسن موجودة في ديوانه أولها : .

أدنت قطوف ثمارها للقاطف ... وثنت بأنفاس النسيم معاطفي .

منها فيما يتعلق بذكر الحمار : .

ولكم بكيث عليه عند مرابع ... ومراتع رشت بدمعي الذارف .

يمسي على عسرى ويسرى صابراً ... بمعارف تلهيه دون معارف .
وقد استمر على القناعة يقتدي ... بي وهي في ذا الوقت جل وظايفي .
ودعاه للبئر الصدى فأجابه ... واعتاقه صرف الحمام الآزف .
وهو المذل بألفة طالت وما ... أنسى حقوق مرابعي ومآلفي .
وموافقي في كل ما حاولته ... في الدهر غير موافقي ومخالفي .
دوران ساقيه لطاحون لنق ... الليل الماء في شات ويوم صايف .
لكن بماء البئر راح بنقله ... قتلته شامات بموت جارف .
ومما ينسب إلى صاحب تاج الدين : .
توهم واشينا بليل مزارنا ... فجاء ليسعى بيننا بالتباعد .
فعانقته حتى اتخذنا تلازماً ... فلم ير واشينا سوى فرد واحد .
ونظم يوماً صاحب تاج الدين : .
توافى الجمال الفايزي وأنه ... لخير صديق كان في زمن العسر .
وأمر السراج الوراق بإجازته فقال : .
فيا رب عامله بالطافك التي ... يكون بها في الفايزين لدى الحشر .
وبعث صاحب إلى السراج وقد ولد له ولد صلة وثلثا حريراً وكتب مع ذلك أبياتاً خمسة
أولها .

بعثت بها وبالثلث الرفيع .
فأجابه الوراق بأبيات أولها .
سرت من جانب العز الرفيع ... إلي بطيب أنفاس الربيع .
مصرعة كأني اليوم منها ... ولجت على حبيب والصريع .
دعونا الخمسة الأبيات ستاً ... لسبع علقت فوق الجميع .
فدينا من هباتك مذهبات ... كان محوكها قطع الربيع